المقتبس

غرة ذي الحجة سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

شيلر

١٧٥٩ ــ ١٨٠٥

المؤثرات في اخلاق الرجال كثيرة واهمها التربية والمحيط فكلما حسن هذان العاملان جاءت منهما نفوس مجردة عن الشرور نازعة الى خير الأمور . واكثر العلماء على ان من الاخلاق ما هو طبيعي ومنها ما هو كسبي يستفاد بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه اولاً فاولاً حتى يصير ملكة وخلقاً . قال بعضهم ليس شيء من الاخلاق طبيعياً للانسان ولا نقول انه غير طبيعي وذلك انا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ اما سريعاً او بطيئاً . وهذا الرأي الاخير هو الذي اختاره العلماء المتأخرون واكثر فلاسفة الاسلام ومنهم ابن مسكويه واحسن ما جاء في تربية النفس والاخلاق قوله تعالى «ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها»

هذه القاعدة الكلية في التربية لا تكاد تتخلف ويشتد ظهورها في كبار رجال الخليقة مثل مترجمنا اليوم شيلر الالماني رافع علم الحرية والنهضة الادبية في أمته والساعي الى اعلاء شأنها وابلاغها درجات الكمال فقد اثرت فيه التربية الأولى التي ينشأ عليها كل سليم الفطرة في الغالب من حب الخير المحض وكره الشر فاشمأز من اعمال البشر وسيئات الحياة ثم لما قذفت به ادوار الحياة الى المدرسة الحقيقية واغني بها مدرسة العالم واخذ في مثافنة كبار ارباب العقول وحملة العلم المقرون بالعمل تجلى له الراجح من المرجوح وصرح له الحق عن محضه وكشف له اصحابه وجه الحقيقة في امور كثيرة . وكل قرين بالمقارن يقتدي .

لم يكن شيلر كصاحبه كيتي رجلاً خدمه السعد وحالفه الرغد بل كان من شقاء الحياة وقلة ذات اليد المثل المضروب والرجل المحروب المحزوب . عزم والده ان يعلمه اللاهوت من اول امره ليكون له مورد رزق في حياته ويعيش عيش الواعظين والمرشدين وان شئت فقل عيش الزاهدين والمتزهدين الا ان الدوق شارل وجين دي و رتمبرغ اشار على والديه ان يبعثا به الى مدرسة شارل التي اسسها في استوتكارت وفيها درس الحقوق والطب وانصرف مدة الدراسة الى مطالعة الكتب المحظور تلاوتها على التلاميذ سراً وقراءة جانب من اسفار الادب من سنة ١٧٧٣ إلى سنة ١٧٨٠

ولما خرج من المدرسة عين جراحا في الجيش براتب ١٨ فلوريني في الشهر فضاقت به الدنيا بما رحبت اذ كان يقضى عليه ان يخضع لنظام الجندية ويثني صاغراً لاوامر امير نكاد مستبد واعة بكشف رعاياه عن اسرارهم الخاصة ومراقبة سيرهم عن امم . فلم تمض عليه سنتان في خدمة الدوق دي ورتمبرغ حتى ضاق صدره بما يلقاه من جور القوانين النابية في الاغلب عن طور العقل فخاصمه لانه

كان يمنعه من نشر شيء من قلمه في الادب وحبسه مرة خمسة عشر يوماً لانه ذهب لحضور رواية تمثيلية بدون اذن فاضطر شيلر ان يفر بنفسه ليتمتع بحريته فتواري مدة عن الانظار مخافة ان يقبض عليه ويسلم للدوق في ورتمبرغ وظل سنتين بعد ترك الخدمة يقاسي صروف الحدثان لا ملجأ ولا مورد ولا مال ولا فراغ بال . اجول من قطرب وافلس من ابن المذاق واهون من قعيس على عمته يقذف به نجد الى سهل وسهل الى حزن وبؤسه متصل كالحلقة المفرغة لا يدري ابن طرفاها ان راح ذات اليمين تطوح به الطوائح ذات الشمال وان اتجه نحو الشرق صاح به صائح عليك بالغرب وكأن الطبيعة عاندته في جسمه وصحته كما عاندته في وفره وماله . فقد كان نحيفاً ضئيلا يمشي كالقلق حرم الذوق حتى يكاد يضحك منه من يراه . ولطالما سخر منه اصحابه عند تمثيل رواياته اذ لم يكن يعتني بهندامه ولا بملابسه فكنت تراه رث الهيئة والسربال وبيل المسكن تنبعث من غرفته رائحة الدخان الذي يدخنه وتراها غاية في التشويش فمن نسخ من مصنفاته مطروحة في كل ناحية ومن بطاطا ملقاة مبعثرة في الزوايا ومن صحاف فارغة وزجاجات واوان وغيرها تجدها هنا وهناك . وكثيراً ما كان صديقه كيتي يضجر من مجالسته في غرفته على عهد صداقته الاولى ولما يبحث عن سر هذه التتانة تبين له ان شيلر يحفظ التفاح العفن في جرار مائدته .

وهكذا كانت فاتحة حياة شيلر بؤساً وشقاء وسقماً وعناء . روح ملتهبة متحمسة محصورة في جسم سريع العطب لها اتصال بالعالم الخارجي ولكن على ارداء الوجوه والصور وحالته الداخلية مقيدة بامور خارجية لا ترضيك بوادرها فكادت تكون تربيته وحشية تقتل فيه روح الاستقلال وذلك لما يعانيه من الشقاء الذي يكرهه على الجهاد المتواصل لتحصيل رزقه كل يوم وكاد ما يلقاه من الالاقي في

صباه يقضي عليه بالتأخر في سبيل العلم وهو ابداً يتقاذفه عاملان افكاره الفلسفية الخيالية وميله الى الآراء الثورية ·

و بالجملة فقد كان على فقره وضعفه لا يرضيك ظاهره لانه لم يخلق ليعجب الناس ويذهب بفضل الشهرة بينهم مثل كيتي صديقه ولا ليعيش في العالم عيش السعداء ويستمتع بطيبات الحياة الاجتماعية ولذلك تخلى شيلر وهو في سن الفتوة عن العالم الخارجي وعمد الى الغوص في عالم الفكر والخيال · وقد ذكر احد واصفيه الادوار التي تقلبت عليه فقال : انه كان لاول عهده بعيداً كل البعد عن العالم الحقيقي يشتعل ذكاء ممزوجا بالعجب وقد اثرت فيه كتابات جان جاك روسو الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي وغيره من شعراء المانيا فاصبح عدو المجتمع اللدود وخصيم التمدن الحديث والقديم · عرف بالاشمئزاز من احوال البشر وبدوء النظر في مستقبل العالم و بسلامة النية في دعوة الخلق الى الكمال على ما تجلى ذلك في كتاباته التي نشرها في صباه ثم بدلته التربية واثر فيه اصحابه وعشراؤه فاخذ يحسن ظنه بالمدنية الحاضرة وارتأى ان يخرج الانسان من طور الطبيعة اولاً ويدخل في ميدان الجهاد ليحرز بعمله مقاماً ادبياً محموداً فيكون من ذلك سعادة الانسانية

وقالوا في وصف شيلر ايضاً انه لم يكن يعشق الطبيعة مثل صاحبه كيتي وما كان ينظر للعالم والناس مثل هذا نظر الصبور الذي لا غرض له ولا هوى بل كان يهتم بحالته الداخلية اولا ثم بافكاره وما شعر بانه كان يتخمر في نفسه و يغلو في صدره من الاحساس والشعور فما ذكره في شعره والم به في نثره من احوال العالم هو ما وقع في قلبه وقاسى منه بذاته واقتنع به اقتناع فيلسوف واخلاقي · ومن اهم ما شعر به ميله الى الحرية ولكنه كان ميلا مجرداً ليس فيه اثر للعمل اذ لم تخلق مع شيلر تلك الخاصية من اثارة النفوس واهاجة العواطف · وقد منحته فرنسا عام ١٧٩٢

حق الوطنية الفرنسية لحريته وتحمسه . ولقد شرب قلبه حب الحرية بما فيه من فطرة سامية تأبى الظلم ولا تميل الى الصغار . وكان هذا الاستعداد فيه رد فعل طبيعي لما قاساه من الضغط منذ دخل المدرسة بل انه حجة له لنقض اساس الاستبداد الذي عرف به صغار امراء المانيا بما فيهم من الشدائد . جاء في موسوعات العلوم الفرنسوية : وفي سنة ١٧٨٧ ذهب شيلر الى مدينة ويمار رجاء نيل الزلفى من ثلاثة كتاب وهم ويلاند الشاعر الاديب وهردير الكاتب الفيلسوف وكبتي العالم الفيلسوف وكان الدوق شارل اغست قد استدعاهم الى حماه وجعلهم من رجال قصره فاراد شيلر من تقربه منهم ان يسلك سبيلهم في تقوية جميع قواه مطلقة حرة بدون ان يهتم لغير ذلك من اسباب النجاح نخاب سعيه اولا من الانضمام اليهم وتكثير سوادهم ولكنه بقي مقيما في ويمار وان كان بعيداً عنهم رغم اخفاق ما قصد له وانتهت به الحال بعد بضع سنين قضاها في اشق انواع الصبر المحزن ان نال مرتبة ثابتة فعين استاذاً في كلية ينا سنة ١٧٨٩ وفي السنة التالية تزوج بشارلوت دي لانجفلد فرأى منها رفيقة تفهم مغازيه ومراميه وتحبه وتعنى بامره وتخلص في خدمته خصوصا في اوقات مرضه .

فساعده حب زوجته له واعجاب تلاميذه واصحابه بمواهبه واحترامهم له على التفرغ للعمل براحة بال اكثر من ذي قبل فاخذ يغير شيئاً فشيئاً واخذت تهدأ افكاره من اضطرابها وتلين نفسه بعد شموسها وتجلت له الغاية التي يرمي اليها ويقضي عليه بعد ذلك ان يقتحمها بعزم ومضاء . فراح يبذل اقصى مجهوده في التأليف وكثيراً ما كان يفرط في النظر ويعمل في الكتابة عملا يجاوز الطوق ثم دعته الحال ان يتوفر على دراسة التاريخ دراسة الخبير البصير ليزيد به خبرة ويلقح به شعره . وكان يكتب في صغره كيفما اتفق فرأى من الضروري ان

يستكثر من المعارف التاريخية الثابتة المحسوسة وايقن ان مادته لا تغزر وافكاره لا تنضج الا بالتخلي عن الشعر زمنا والانقطاع الى درس التاريخ وان يتعلم كما قال عن نفسه امورا كثيرة هو في حاجة اليها و يزرع قبل ان يحصد . ثم درس العلم الالهي وامور الآخرة اي درس الفلسفة في كتب فلاسفة اليونان الاقدمين وتبحر في فلسفة « كانت » الحكيم الالماني الشهير فاستفاد من دراسته فلاسفة اليونان لطف الاداء وجلاء المعاني ووضوحها وسهولة المأخذ مما لم يكن له اثر في منظومه ومنثوره ورأى في « كانت » اعظم ممثل للافكار الحديثة وراقه منه حكمه السامية التي ذهب بها مذهب زينون الفيلسوف اليوناني كما راقه بافكاره في الجمال والفنون . وقد دفع المترجم به الى درس كتب الفلسفة اليونانية ويلاند المشار اليه كما دفعه الى التبحر في مصنفات « كانت » رينهولد الفيلسوف حتى اصبحت تآليفه التي صدرت عنه في تلك الحقبة من حياته كأنها توفيق من الفلسفة اليونانية والكانتية اي بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة .

وفي سنة ١٧٩٤ استحكمت صلات الود بين شيلر وكيتي وكانا تعارفا سنة ١٧٨٨ تعارفاً لم يؤد الى احكام علاقات القلوب فانتفع المترجم من صاحبه كثيراً واقل ما استفاد منه انه اراده على الرجوع الى حظيرة الشعر وكان زهد فيه زمنا على ما تقدم وانصرف الى التاريخ والفلسفة . عاد اليه بنشاط غريب بعد انقطاعه عنه ست سنين . ثم مرض سنة ١٧٩١ مرضا كاد يودي بحياته فلما ابل آلى ان يغتنم الساعات الباقية من حياته ليبقي له آثارا تنفع الناس فالف في مدة عشر سنين وهي المدة التي قضاها في عشرة كيني تآليف كثيرة كأنه كان يسارق بها المنون واكثرها في الشعر والادب والنقل عن اللغات .

وفصارى القول فان شيلر الاديب الشاعر المؤرخ الحكيم المفكر هو بعد كيتي اكبر رجل من اهل الادب في المانيا وربما كان مشتهراً لدى الخاصة والعامة اكثر من صديقه . وقد حسده معاصروه ولم يعترفوا به حتى ان المحدثين من اهل الادب الساعين الى نزع قيود الانشاء القديم ومنهم الفيلسوف نيتش الالماني جعل عليه حملات منكرة ولعل حملات هذا الفيلسوف كانت على شيلر في الزمن الذي جن فيه وهو لا يقل عن عشر سنين وهذى بالفلسفة هذيان المحموم . وامتاز شعر كيتي على شعر شيلر بانك تقرأ في الاول النبالة والترف وشعر الثاني يطرب به الشعب فكان الاول لزعماء الامة والثاني للامة نفسها وان شئت فسمهما شاعر الاغنياء وشاعر الفقراء .

وقد وصفت صاحب هذه الترجمة العقيلة دي ستايل الكاتبة الفرنسوية في كتابها « المانيا » بما يأتي معرباً بقلم احد اصدقائنا :

كان شيلر عظيم الذكاء ثابت الاعتقاد وهما خلتان قل ان يجتمعا في رجال الادب . تقرأ بين عينيه ما يسري بين جنبيه وترى شخصه مصوراً في كتابته يوحي اليك ذلك الادب الوافر والعلم الغزير والفضيلة النادرة . وما كان شيلر ممن يغيرون اعتقادهم تمويهاً وتضليلا لغيرهم . بلى كان يحب الشرف ويشغف بالمجد فيسعى اليهما من كل سبيل . وما اجمل الذكاء الذي سرى في اعطافه الشرف وقوة النفس اذا امتزجت بصفاء السريرة . فقد كان شيلر صديقاً وفياً وابّاً رحيماً وزوجاً باراً يحترم النساء ويعجب بالفنون الجميلة ويعبد الباري تعالى على ما وهبه من ذكاء نادر على ما ترى ذلك ماثلا في مصنفاته لو قلبت تضاعيفها وحدقت في سطورها .

ولقد لقيت شيلر لاول مرة في قصر الدوق دي ويمار في مجلس حافل باهل العلم فاذا هو يتوقد ذكاء وبعد نظر . وكان يجيد قراءة الفرنسية وان لم يتكلم بها

وقد ناظرته في افضلية طريقة التمثيل عندنا فقام يعارضني على ما يجد في لسانه من حبسة وعجز عن التكلم بالفرنسية وابان عن فضل جم وعلم واسع فانقلبت من المجلس وانا احترمه واجله

النقل والنقلة

ليس العلم وقفاً على امة معينة ولا على اهل دين خاص ولغة خاصة بل العلم مشاع بين سكان الارض يقتبسه الراغبون فيه ممن عرفوا غناءه لهم وفائدته لقيام جامعتهم واعلاء كلمتهم كما ان الحضارة تنتقل من يد الى يد وتأخذها الامة المتحضرة عن جارتها او تورثها عن اختها الذاهبة . ولذلك لم تستغن امة في النقل عن غيرها ما يعوزها من علوم الاشر على اختلاف انواعها نقلاً ينتفع به اهل جيلها وقبيلها ويؤثر الاثر المطلوب في العقول . فقد نقل الفرس علومهم عن جيرانهم الهنود ونقل الرومان عن اليونان ونقل اليونان عن المصريين ونقل العرب عن اليونان والفرس ونقل الافرنج عن العرب واليونان والرومان وغيرهم من امم الخليقة . وقد مست الحاجة في هذا النقل الى ترجمة اهم كتب اولئك الاقوام في الصناعات والديانات وعلوم الحكمة والطب والرياضيات والشرائع والتاريخ والادب .

هذا الكثير من العلوم التي نراها لعهدنا وكتبها التي لاتحصى في كل ضرب من ضروب المعرفة النافعة لسعادة الخلق هي ولا جرم من عمل القرون المتطاولة هي زبدة تجارب صفوة بني آدم واغض ثمرات عقولهم منذ الوف من السنين تكونت فيها امم كثيرة ثم بادت وقامت مدنيات تذكر ثم سقطت منها ما نقل الينا ومنها ما لم ينقل . فكما ان اللغات والشعوب ترجع الى اصول قليلة تفرع عنها هذا العدد الكثير من الاجيال المعروفة في قارات الكرة الارضية الخمس فكذلك كانت العلوم